

الاتجاه القومي في مسرح علي عقله عرسان

* شهریار نیازی

** أعظم بیگدلی

*** شیما فرجی فر

الملخص

لقد ظهرت اتجاهات عديدة في عالم المسرح العربي، فأحد أبرز هذه الاتجاهات هو الاتجاه القومي الذي واكب مسيرة الأمة العربية في صعودها و انتكاسها؛ فاهتم الأدباء المسرحيون بهذا الاتجاه و أفردوا له جزءاً من نتاجاتهم. فعلى عقله عرسان يعد بحق من طليعة هؤلاء الأدباء إذ حمل الهم القومي و الإنساني. فبات مسرحه استجابة حقيقية للأحداث المصيرية العاصفة التي هزت الوجدان العربي فدعا عرسان إلى تفتح الإرادة العربية و صيانة العمل القومي، و قد أفصح فيها عن إيمانه المطلق و مبدئيه الصارمة في التصدي للموضوعات القومية في مسرحياته؛ فأعماله المسرحية صارت عنواناً صارخاً للوعي القومي الناهض على وجه صريح و معلن.

الكلمات الدليلية: الاتجاه القومي، المسرح القومي، عرسان، مسرح عرسان، المضامين القومية.

* عضو هيئة التدريس بجامعة طهران (استاذ مساعد).

** طالبة الدكتوراه بجامعة طهران.

*** طالبة الدكتوراه بجامعة آزاد الاسلامية، أراك.

الكاتبة المسؤولة: اعظم بيگدلی

تاريخ الوصول: ٩٠/١٢/١٩

المقدمة

إن المجتمع العربي عانى فترات طويلة من التشتت و الفرقة و التمزق، و قد ازدادت هذه المعاناة فى العصر الحديث، عندما جاء الاستعمار الأوروبى و أحلّ نكبات فى أقطار الوطن العربى، كما ازدادت الطامة عندما عمدت الإمبريالية العالمية إلى زرع كيان مفتعل فى قلب الأمة العربية فاشتد الوعى القومى فى العصر الحديث بالأزمات و المشكلات التى تعانىها الأمة العربية فظهرت الأحزاب القومية و الجمعيات الأدبية ذات الصبغة القومية.

كان الأدباء والشعراء عبّروا عن طموحات الأمة و أوجاعها و تطلعاتها العريضة فشاع تيار أدبى عريض، هو تيار الأدب القومى الذى شكّل حضوراً فاعلاً فى جميع الأنواع الأدبية منها المسرحية فبما أن المسرح ظاهرة اجتماعية، يرتبط بالمجتمع الذى يولد فيه و يعبّر عنه و منذ نشأته كان معياراً حقيقياً لحضارة المجتمع و كان سجلاً حقيقياً للاتجاهات و التيارات التى مرّت به، يبقى المسرح هو الفن الوحيد الذى يتوجه إلى جماهير الناس توجهها مباشراً و يحمل همومهم اليومية و المستقبلية و يضع فى اعتباره قضاياهم السياسية و لقمة عيشهم و صرايحهم مع العدو(بلبل، ١٩٨٤: ١٠-١١).

ظلت تزداد العلاقة بين المسرح و الاتجاه القومى لأن المسرح أكثر من غيره تعبيراً عن القضايا القومية الكبرى، لما فيه من إمكانات كثيفة مستبطنة تلعب دوراً فى توجيه الجماهير و تحريضها لدرء الخطر عنها. مالت عواطف بعض الكتاب المسرحيين نحو القضايا القومية فصنّفت أقلامهم نتاجات عديدة للتعبير عن تلك القضايا و المواقف. آمن على عقله عرسان من بين هولاء المسرحيين بدور الأديب الفعال فى المجتمع و بضرورة مشاركته فى قضاياها فصارت قضايا المجتمع العربى دافعاً لتحريك قلمه وهدفاً لإبداعه. تهدف هذه المقالة دراسة مسرحه من منظور قومى متوقفة عند مسرحياته الثلاثة؛ هى «الغرباء»، «الفلستينيات»، و «عراضة الخصوم» كنماذج من نتاجه المسرحى القومى.

الاتجاه القومى و أسباب نشوءه

لقى الاتجاه القومى منذ بداياته، و لا يزال يلقى ألواناً من التفسير و التنظير و أشكالاً من التعبير عنه و التعريف به. مع ذلك يمكن تخلص مفهوم الاتجاه القومى فى أنه استهدف تعميق الإحساس لدى أبناء الأمة العربية الواحدة، و وعيهم بمفهوم القومية

العربية و مقوماتها و تحريكهم بالعاطفة و الوعي معاً لترجمته فى سلوكهم و ممارساتهم واضعين نصب أعينهم الأهداف القومية(عبد الغنى،١٩٩٤: ١٧) و الحديث عن الاتجاه القومي، لا يعنى بالضرورة وجود حركة قومية، متميزة التخوم، بنية المعالم بقدر ما يعنى وجود اتجاه متميز ببعض الملامح الفكرية القومية، و المهتم بقضايا خاصة معينة يمكن أن نرى من خلاله الهوية القومية، أو الجانب القومي فهو يعنى تناول القضايا العربية بخطوطها العريضة، و تحديد المفاهيم الموضحة لجانب متعلقة بأهداف الأمة العربية(الأطرش،١٩٨٢: ٢٠٣).

الاتجاه القومي جاء نتيجة للعديد من العوامل و البواعث أبرزها، حالة الضعف التى تردى فيها العرب فى ظل الحكم العثماني و محاولة التتريك التى تمارسها الأتراك و كذلك محاولتهم الفاشلة فى قيام بإصلاحات جذرية فى المجتمع العربى زاد من تفاقم الأوضاع سوءاً مما زاد من شعور العرب القومي بضرورة التخلص من ذلك الوضع (ابراش،١٩٨٧: ١٨). ثم نشوء الوعي الذى نتج من تزايد دور المبشرين الثقيفى و التعليمى من خلال إنشاء العديد من المدارس و الكليات الجامعية و انتصار بعض الثورات كالثورة المصرية و إنشاء الدول على أسس جديدة كان من البواعث الأخرى للاهتمام بالاتجاه القومي.

شهدت عهود الاحتلال فى فترة ما بين الحربين العالميتين نشاطاً فى الحركة القومية، فحاض الاتجاه القومي نضاله لنيل الاستقلال و تحقيق الوحدة و مع انتهاء الحرب العالمية الثانية نالت معظم الأقطار العربية استقلالها و وحدتها(المصدر نفسه:٢٣).

تساعد الاتجاه القومي و أخذ اتجاهات فكرية عدة عند قضية العرب الأولى؛ فلسطين و احتلالها و إنشاء دولة عربية فيها إذ تعتبر هذه القضية أكبر كارثة منيت بها الأمة العربية فى تاريخها المعاصر؛ فتأسست حركات قومية و حدودية ثورية بارزة لتحريرها(عبد الغنى،١٩٩٤: ٢٠٩). فبدأ المد القومي التحررى بالانتشار فى كافة أرجاء الوطن العربى إثر الهزائم و الحروب الكبرى ككسبة ١٩٤٨، و هزيمة ١٩٦٧، و حرب تشرين ١٩٧٣ فهذه الهزائم و الثورات أدت إلى شحذ الهمم الحدودية و استنهاضها فى الوطن العربى(جندارى جمعة،٢٠٠٤: ٤٦) فلم يأخذ الاتجاه القومي شكلاً موحداً و نهائياً منذ نشأته و حتى اليوم، و لكنه تطوّر و تشكّل فى كل فترة زمنية بما يتناسب مع الشروط الموضوعية و التاريخية

التي عاصرتها (إبراش، ١٩٨٧: ١٧) فأسهمت هذه البواعث القومية فى تبلور فئة المثقفين و الأدباء و إنضاج وجدانهم و تفجير الطاقات الإبداعية لديهم.

الاتجاه القومى و المسرح العربى

واكب المسرح المجتمع العربى و متغيراته الأساسية و أصبح رداً حاسماً لتطوره الفكرى و طموحاته القومية و الوطنية، و خاض الممارك مع أبناء الوطن العربى و قارع الجهل و التخلف و المستعمر و الاحتلال و الفساد و الظلم (بلبل، ٢٠٠١: ٣١-٣٢) فأقبل الناس على المسرح، و وجدوا فيه متنفساً لكروبهم و منطلقاً لآلامهم كما وجدوا فيه مدرسة للفضائل القومية؛ فصار المسرح نوعاً من الموقف القومى و حظى بدعم اجتماعى كبير من وجهاء المدن و زعماء الحركة القومية (بلبل، ١٩٩٧: ٢١٩-٢٢٠).

عرف رواد المسرح العربى منذ نشأته قيمته و مهمته القومية و الإنسانية، و صاروا أشد تطلباً للالتزام بالقضايا القومية و أكثر إلحاحاً عليها، فغرق كتاب المسرح فى مشاكل وطنهم و هموم أمتهم على امتداد نهاية القرن التاسع عشر و القرن العشرين كله و استطاعوا أن يحرضوا على التغيير و ينبهوا الأذهان و العقول (المصدر نفسه: ٧١). فمن الكتاب الذين اهتموا بالقومية و الوطنية معروف الأرنؤوط الذى كتب مسرحيات تاريخية تخللتها مواقف قومية ثم يأتى بعده عبد الوهاب ابوالسعود و ينحو منحاه فى استمداد أحداث مسرحيته من بطون التاريخ كمسرحية «وا معتصماه» التى اتخذت من وقعة عمورية إطاراً لها (حمود، ٢٠٠٠: ٣٦-٣٨).

اشترك خليل الهنداوى معهما فى هذا الاتجاه، و بدأ يهتم بالقضايا العربية منذ بداية خمسينات القرن العشرين فكتب مسرحيات «طريق العودة»، «تسع بنادق فقط»، و «الفدائى حسن» و خصصها للقضية الفلسطينية إضافة إلى مسرحيات أخرى ذات توجهات قومية (بلبل، ٢٠٠٢: ٥٤-٥٥). ثم جاء بعده فاضل السباعى و اتجه نحو القضايا الوطنية فى مسرحيتين هما «الشوق و اللقاء»، و «الجسر» فكلتاها تتحدثان عن مأساة فلسطين.

انضم حسيب كيالى أيضاً إلى هؤلاء الكتاب، فكتب فى الموضوع الوطنى والقومى مسرحية «سأعود إلى قتالكم»، و «الطفل» و هما تتحدثان عن الثورة السورية أيام الإنتداب (جندارى جمعة، ٢٠٠٤: ٢٧) شارك مصطفى الحلاج فى هذا التيار عندما كتب

مسرحيتي «القتل والندم»، و «الغضب» فتحكى كلتاها عن الاستعمار الفرنسي ثم كتب مسرحية «أيها الإسرائيلي حان وقت الاستسلام» ليثبت الحق العربي في صراعه مع إسرائيل (عصمت، ٢٠٠٣: ١٧٣).

هذه نماذج ضئيلة من المسرحيات القومية التي ظهرت في القطر السوري، فثمة كم هائل من المسرحيات السورية التي شاركت أقلام كتّابها في تناول الموضوعات القومية، و اختلفت المعالجة من كاتب لآخر فلا يمكن ذكر أسماءها لعدم اتساعها في هذه العجالة. فالتيار القومي صار تياراً بارزاً من تيارات المسرح العربي و بات المسرح القومي أوّل مسرحٍ رسمي في سوريا و فرقته فرقة رسمية أسستها وزارة الثقافة السورية سنة ١٩٥٩ و تركزت جهود المسرح القومي على حركة المسرح الجاد و تخلص كلياً لتقديم الدراما (عرسان، ١٩٩٦: ١٧)؛ فالتراث المسرحي العربي- السوري كان قرن و نصف من الزمن متلاحماً مع قضايا الناس و همومهم القومية، فمما جعل المسرح يكسب شرف المعركة القومية للعرب في العصر الحديث.

الاتجاه القومي المسرحي و عرسان

برزت اتجاهات مسرحية مختلفة في الحقل المسرحي السوري؛ فأحد هذه الاتجاهات هو الاتجاه القومي الذي عالج القضايا الاجتماعية و السياسية، و يمثله/الدكتور على عقلة عرسان (نديم معلا، ١٩٨٢: ٦١). و اكب عرسان ظروف الأمة العربية و ما مر بها من أزمات و نكبات و حمل الهموم القومية و الوطنية فتداخل الهم الفردي عنده بالهم القومي و القضية الأخلاقية بالقضية القومية فلم يترك الساحة القومية تارة (صمودي، ٢٠٠٠: ٣٨).

والمسرح عند عرسان بوصفه أدباً أو فناً هو جزء من المعطى الثقافي و مجال من مجالات الإبداع، و هو أيضاً من مقومات شخصية الأمة و فننها و ثقافتها، فلا بد له من أن يعبر عن قضاياها و هويتها و أصلاتها (محمد حمو، ١٩٩٩: ٣٠٢)؛ فيدخل بذلك الالتزام في نسيج عمليته المسرحية، و يتعهد في عرض قضايا مجتمعه و الدفاع عنها حيث يعتقد قائلاً: «لا يوجد في عصرنا و لم يكن موجوداً في العصور السابقة انفصال بالمعنى الكامل بين القضايا السياسية والقضايا الأخرى في حياة الإنسان عند إبداع فني من أجله، و لا يمكن للكاتب أن يعمل بمعزلٍ عن المجتمع» (حمود، ٢٠٠٢: ١٨٢).

فالفن عنده لابد أن يكون هادفاً وملتزماً ومرتبطاً بقضية قومية و إنسانية واضحة، و أن يكون مسخراً لخدمة الإنسان و الحياة و لا يكون خاضعاً أو تابعاً دعواوياً أو إعلانياً و إنما يكون مرسخاً للقيم و الثقافة(محمد حمو، ١٩٩٩: ١٦١ و ٢٣٩) لأن المسرح - فى رأيه- عمل بنوي يساهم فى بناء جوهر الإنسان و حضارته. فمسرح عرسان يشكل تجربة متقدمة و ذات طابع ريادى فى المسرح العربى الحديث فى سوريا من حيث منطلقه القومى و مضامينه الطليعية.

مسرح عرسان القومى

كتب عرسان مسرحيات عدة هى؛ «زوّار الليل»، «الشيخ و الطريق»، «السجين رقم ٩٥»، «الفلسطينيات»، «الغرباء»، «رضا قيصر»، «عراضة الخصوم»، «الأقنعة»، و «تحولات عازف الناي»(حمود، ٢٠٠٢: ١٨٦).

اتخذت مسرحيات عرسان مناحى متعددة؛ فأبرزها المنحى القومى الذى بدأ أكثر ظهوراً فى مسرحياته الثلاثة و هى «الفلسطينيات»، و «الغرباء»، و«عراضة الخصوم» إذ خصصها كاملة لمعالجة القضايا القومية و الوطنية فأهم القضايا التى عالجها فى مسرحه القومى هى:

١. قضية فلسطين

تعد فلسطين النقطة المركزية فى حياة الأمة العربية، و أصبحت تشكل نقطة انطلاق لهزة عنيفة لا تزال مستمرة إلى اليوم. الفكر القومى السورى كان سباقاً إلى التأثر بما يجرى فى فلسطين من أحداث(أطرش، ١٩٨٢: ٢١٨)، فأخذت القضية أبعاداً واسعة فى فكره و نتاجه فدفعت الكتاب إلى الانتماء القومى سياسياً و فكرياً و أدبياً فظهر نتاج وفير من القضية الفلسطينية محورا له حيث عالج قضاياها و مشاكلها تبعاً لتطور الأحداث فيها(ابوشاور، ٢٠٠٣: ٢١).

على عقلة عرسان من الفرسان المدافعين عن القضية الفلسطينية فى ممارسته الإبداعية و الثقافية و النقدية، و انصب نتاجه القومى بشكل مباشر على هذه القضية(ابوهيف، ٢٠٠٢: ١٣٣) فشكلت فلسطين باعتبارها أكبر قضايا العرب القومية عنصراً هاماً فى مسرحياته الثلاثة، التى تعالجها كاملة من مختلف الجهات و الرؤى. ففى مسرحية

فلسطينيات يتناول عرسان القضية الفلسطينية فى الفصلين فى الفصل الأول يكلف عرسان نفسه عناء سرد تاريخ القضية الفلسطينية منذ بداياتها الأولى، متبعا أحداثها خطوة فخطوة حيث يبدأ الصهاينة بالتسلسل بالمراكب إلى المنطقة و ذلك بالتشجيع من قبل انكلترا و شراء الأراضى و إقامة المستوطنات فيها:

مسعود: الشواطىء

الرجال: ما لها؟

مسعود: لم ترقنى حالها

رجل ١: ما السبب؟

مسعود: فى ثنايا الليل تغزونا المراكب

رجال: المراكب؟

مسعود: فوقها ناس يفوح الحقد منهم

مثل أفواج الجراد

ما لهم لون موحد

إنهم اعجوبة التهجين و الجنس المولّد

يقصدون السهل و الوادى و ... و أحضان الجبال

(عرسان، ١٩٨٩، ج ١: فلسطينيات: ٢٢٠)

ثم يعرّج على الأحداث المهمة فيتحدث عن حرب ١٩٤٨ و قيام الكيان الإسرائيلى، و يعرض لموقف العرب و أهل فلسطين من هذا الأمر فمنهم من فضل الرحيل لأن الحكام قد وعدوهم بالعودة السريعة:

الضابط: اسمعوا، خذوا الأطفال ...روحوا ... بعد أيام تعودون إليها

جاء أمر القائد الأعلى بأن نخلى الديار و منهم من فضل البقاء على الرحيل.

مسعود: سوف نبقى فى قرانا

إنما الأطفال يا سلمى

جزء من ربانا

حمدان: سوف نبقى فى صفوف الجيش نحمل أرضنا

تقول أيضا فاطمة: لن اغادر

دم زوجى بقعة حمراء فى إحدى الزوايا
و بأرضى مات آلاف الضحايا
كل هذا كى نهاجر؟
لم يمت زوجى لكى تعطى قرانا للغزاة
النساء: لن نغادر

(عرسان، فلسطينيات: ٢٥٩-٢٥٤)

بعد ذلك يتحدث عن مجازر الصهاينة فيورد كل هذه الحوادث بشكل سردى مباشر بلغة شعرية، و يتابع تاريخ القضية فى الفصل الثانى و يتكلم عن تشرذ الشعب و المخيمات و اليأس، و يشير إلى الحلول المطروحة التى تتفاوت بين المفاوضات و التعايش و الرضا بالواقع و بين المقاومة و رفض الحلول الاستسلامية.

يقود عرسان أحداث مسرحيته هذه فى إطار فنى بسيط، معتمداً على الطابع التسجيلى فالأحداث التى يرسمها فيها تتوافق تماماً مع ما حدث على أرض الواقع من مستجدات حسب تسلسل زمنى، و ذلك عن طريق رسم الملامح الصغيرة لكل حدث لإعطاء صورة كاملة عن القضية (جندارى جمعة، ٢٠٠٤: ١٠٠).

أما فى مسرحية الغرباء يعرض عرسان أيضاً القضية الفلسطينية، فيحكى حكايتها من خلال قصة غرباء (جماعة أبى داود) أتوا إلى قرية من القرى حيث طردتهم بقية القرى لفسادهم فيها؛ دب الخلاف بين أهاليها حول بقاء هولاء فيها أو رحيلهم عنها، بقى الغرباء أخيراً فيها و زرعوا فيها الفساد و استوطنوا ثم ما لبثوا أن استطاعوا فى حكمهم وسيطرتهم إلى أن هبت القرية المستسلمة بالسلاح عن حريتها. فالمسرحية تعرض القضية منذ الهجرة اليهودية حتى معارك تشرين و لا تهمل حادثة فتركب كل قضية عامة على مسألة فردية لتتنقل الوثائق إلى الدراما (عصمت، ٢٠٠٣: ٨٤).

يتعمق عرسان فى مسرحية عراضة الخصوم فى تحليل قضية فلسطين، و ينطلق من فكرة وطنية قومية فيها و ينتقى مناسبة تتعلق بقضايا الوطن الأساسية و هى اتفاق مصر مع إسرائيل حول سيناء، و يدرس أثر الاتفاقية فى الناس البسطاء. تحكى المسرحية حكاية امرأة تدعى أم سليم فجعت بشهادة ولدها فتنتقل إلى الشارع رافعة فى يدها مشعلًا، و تبحث عن الرجال الحقيقيين لإكمال درب الشهداء فتصطدم بالسلطة و أزماتها

إذ تحاول السلطة امتصاص تيارها الرفض و صرفها عن مسارها، و لكن في النهاية تضىء
شعلة الشهادة كل الدروب المظلمة و تسدد الخطى.

يلاحظ أن القضية الفلسطينية تحظى بأكثر من مسرحية عند عرسان و يعالج هذه
القضية من رؤاه المنطلق عن فكرته القومية، و يركز على بعض القضايا التي يستقيها من
بطون هذه القضية و هي:

أ. معاناة الشعب الفلسطيني

يقدم عرسان صورة وافية عن حالة أبناء شعب فلسطين، في داخل الأراضي المحتلة أم
في خارجها فشردهم الغزاة من وطنهم الذي كان أرضا للمحبة و السلام.

النساء: شردونا... قطعوا أرحامنا

كيف نحيا في العراء؟

كيف نبقي في العراء؟

أرضنا أرض المحبة

أرضنا أرض السلام

حلّ فيها من تعشّو بالمسيح

(عرسان، ج ١، فلسطينيات: ٣٠٧)

يتنقل الشعب بين المخيمات و يشرّد سنينا طويلة، و ظلت خيامهم تكثر و تكثر،
فهجرة تتلوها هجرة و الخيام يزداد عددها، و المخيمات تتسع مساحتها، و يزداد اليأس،
فلا أمل للعودة:

سلمى: زادت الخيمات خيمات آخر

الخيام السود تكثر

عمّت السهل الفسيح

(عرسان، فلسطينيات: ٢٨٤)

يكثر عرسان الحديث عن المخيمات و ما فيها من الذل و ألم و حزن، و ما تضمنها من
جوع و قهر:

النساء: قد تشردنا سنين

ضاقّت الأرض بنا و اسودّ وجه العالمين

مسعود و حمدان: هذه الخيمات و الذل المقيم
القهر و الحرمان ما أرض و دار
القهر و الحرمان من دولة

(عرسان، فلسطينيات: ٣٢٠)

فيقضى الشعب أيامه فى الجوع و البرد و الظلام و الغربة مع قسوة الأعداء، الذين
انتزعوا منهم الأرض و يطول بقاء الشعب فى هذه الحالة المأساوية المظلمة فلا يجد أملا
للخروج مما يعانيه:

حسّان: قد طال نوم الشمس يا صاحبي
و ملينا من الأنين
و البرد فى صلب العظام و الليل جبار، و ظلام، و مارد
أينما وجهت أنظاري أرى الأنوار تخفت

(عرسان، فلسطينيات: ٢٧٦)

يملّ الشعب من هذه الحالة و بات يطلب الموت فلا يجده أمام قسوة ما يعانيه:
سلمى: ضقت بالخيمات تجثو
فى الرطوبة، فى الظلام
ضقت بالإذلال، ضقت بالعيش... فأين الموت...؟
أين الموت...؟

(عرسان، فلسطينيات: ٢٦٥)

فى مسرح عرسان القومى ثمة مواقف كثيرة ترسم للقارئ صورة أبناء الشعب
الفلسطينى داخل الأرض و شتاتها فما ذكرناه كان غيضا من فيض.

ب. إسرائيل و ممارساتها القمعية

تبعاً لمعاناة الشعب الفلسطينى يتحدث عرسان عن عدو فلسطين اللدود إسرائيل، و
عن ممارساتها فى الوطن المحتل حيث فتك الصهاينة الشعب الفلسطينى، و هجروهم من
وطنهم و خلقوا الإرهاب و القسوة بارتكابهم المجازر الجماعية، بهدف إجبار الشعب على
المغادرة و ترك الديار.

العجوز: يا أهالى فلسطين

يا نساء
أجمعوا الأطفال ولّوا هاربين
جاء رعب الموت ولّوا هاربين

(عرسان، فلسطينيات: ٢٤٨)

ثم يتكلم عرسان عن مذابح الصهاينة بحق الشعب، و بحق الأبرياء فى دير ياسين حيث تشهد على وحشية الصهاينة و وحشية أعمالهم فيورد حادثة بشكل سردى، يتخلله الكثير من التفجع و البكاء على ما حدث:

النساء: ما جرى فى دير ياسين؟
العجوز: مزّق الإنسان، ديست حرمة الحق المبين
مزّق الوحش البطون

سلمى: يا إلهى
العجوز: أحرقت صهيون بسمات الطفولة
مزّقت صهيون أجساد الأجنة
فى حشا الأرحام داست، فى العيون ...
فجأة فى رهبة الليل أتانا الغادرون
نبتوا الرعب بساحات القرى

مات أمن الآمنين و انتشت فى القرية الخضراء أحقاد وعمّتها الدماء
تحت أنقاض البيوت
جبهة سوداء أو طفلاً قتيلاً أو مشوه

(عرسان، فلسطينيات: ٢٤٩)

يصف عرسان أيضاً ممارسات اليهود من خلال سلسلة من الأعمال المشبوهة، التى يقوم بها جماعة/بى داود و التى تتمثل فى بناء الدهاليز و التحصينات، على أنقاض بيوت الشعب الفلسطينى و يحتلون أجزاء كبيرة من الأرض و يستولون عليها عنوة:
ابو داود: لا أفهم لغة العواطف هذه يا مختار. بيوتكم أخذتها بالقوة و أصبحت الحارة لى، ومن بقى فيها منكم هم الآن تحت تصرفى و طوع أوامرى، يعملون ما أريده، و

الساحة التي التقينا فيها يوم وصلت، و التي تراها الآن عن بعد أصبحت لنا و ليس لكم فيها موطنى قدم.

المختار: أهل الحارة، أصحاب البيوت.

ابو داود: أهل الحارة لم يبق لهم أرض و لا بيوت، نحن الآن أصحاب الملك (عرسان، ١٩٨٩، ج٢، الغرباء: ٧٤٦).

هذه أساليب اليهود و ممارساتهم الرامية إلى تهويد البلاد و طردهم عنها. ففي نتاج عرسان القومى نجد إشارات واضحة إلى جرائم عدو الوطن الفلسطينى حيث توقظ مشاعر المواطن و تلامس عواطفه الدينية و القومية، تجاه الوطن و المواطن و ما لحق بهما من أذى عن أعدائهما.

ج. المقاومة و الثورة و تقديس الشهادة

المقاومة و الصمود و الثورة من الموضوعات التي ألهمت عواطف عرسان القومية، و أثارت اهتمامه فأبدع فيها و طرحها كحلّ أساسى للقضية الفلسطينية لأنها جزء من حركة عربية ضد الإمبريالية والصهيونية، و شكل رفيع من أشكال النضال تستخدمه الحركة الثورية العربية فى وجه أعداء الوطن لاسترجاع مقدساته و أرضه و وطنه.

نزال: فليمم الركب من فوق العروش

حسان: اتبعوا الدرب الوحيد

إن درب الشعب واحد

درب وحدة درب ثورة

إنه درب الشباب

درب عملاق فدائى يرافق

دربنا

درب ثورة

(عرسان، فلسطينيات: ٣٣٤)

ركز عرسان على مسألة الشهادة و اعتبرها المحور الأساسى، الذى تدور حوله مسرحية عراضة الخصوم. فالشهادة من الموضوعات التي تدل على حب الوطن و التضحية فى

سبيله. فمحاولة/م سليم في تنظيمها المظاهرة و حملها مشعلا في يدها لا ترمز إلا إلى متابعة النضال الذي اختاره الشهداء في سبيل الحفاظ على الوطن.

أم سليم: أنتم لستم أفضل منهم (الشهداء) و البلد ليست لهم و حدهم و لا لكم و حركم. ماتوا من أجلها... من أجلكم و لا بد من أن تكملوا ما بدأوه. الطريق التي شقوها هم لا بد أن تكملوها أنتم، و إلا فما معنى موتهم، و ما معنى كل شيء بعدهم إن لم يتحقق الهدف؟ هذا مشعلا أوقدتها من نارهم(عرسان، ١٩٨٩، ج ٢، عرضة الخصوم: ٣٥٤).
فيدعو عرسان كل مواطن إلى عدم خيانة قضية الشهداء و بيعهم في عملية تصفية أو تسوية، تحت أي شعار لأن البعض من لا يهمهم الوطنية يريدون تأجيل عملية التحرير عن طريق إطفاء شعلة الشهادة(غضب، ٢٠٠٤: ٢٦٥).

ام سليم : يا سليم... النار التي أرفعها بيدي قبس من ناركم، يريدون أن يطفئوا لينطفئ ذكركم، و لا يحترق بها قلب أحد غير ذويكم، يريدون أن تداس ذكراكم، و تداس بعدكم لا... لا... يا سليم. ناركم عالية، شعلتكم مرفوعة تنير الساحة... تنير الطريق إليكم و تحرق الخونة و الأعداء، و أنا صامدة يا ولدي كل الأمهات هنا مثلي(عرسان، ١٩٨٩، ج ٢، عرضة الخصوم: ٤٢٥).

تبقى عرضة الخصوم صيحة للالتزام بخط قومي يهدف تحرير الأرض و القضاء على الانتهازيين و توظيف طاقات الوطن، كلها للتحرير و التخلص من برائن العدو الصهيوني و ذلك بمتابعة طريق الشهداء برفع مشعل الفداء حتى النهاية(غضب، ٢٠٠٤: ٢٦٠).

ام سليم: قل لرفاقتك يا ولدي ... سوف يبقى مشعلكم مرفوعا، يقهر أعداءكم و ينير الدرب إليكم. ما بقينا أحياء ... ما بقى في أرضنا حياة و أحياء، و سوف يبقى مشعلكم مرفوعا(عرسان، عرضة الخصوم: ٤٢٦).

مما مر بنا عرفنا أن عرسان عالج في مسرحياته مأساة فلسطين و موضوعاتها الأساسية، التي لها ترابط وثيق بالقومية و الوطنية.

د.الوحدة العربية

الوحدة العربية و الالتزام بها في طليعة القضايا القومية، إذ عالجها عرسان في مسرحه و لم يغفل عنها فتحدث عن التفرق الذي ساد الوطن العربي، فالوحدة العربية من الحلول التي يطرحها عرسان في تصحيح أوضاع الوطن العربي، و رد الأمور إلى نصابها.

يجعل عرسان الوحدة طريقاً للخلاص من العدو فطالب بها حلاً، تقوم به الجماهير متجاوزة الحكام و القادة الذين لا يهتمون إلا للمناصب فتبادر هذه الجماهير لاتخاذ الخطوة المناسبة و ما يتوجب فعله، و هو الوحدة و الثورة (غنييم، ١٩٩٦: ١٥٨).

حسان: فلتضع يا ساكن الخيمة في كفى كفك

و لنناضل

نتبع الدرب الوحيد

إن درب الشعب واحد

درب وحدة

فلنناضل

اتركوا الحكام و امضوا في الطريق

دربنا كالصبح واضح.

مسعود و حمدان: ما الذى تبغونه منا فنفعل

حسان: نتبع الدرب الوحيد درب وحدة

نزال: فلنسر جنباً إلى جنب

ما الذى فرق هذا الصف إذن؟

النساء: إننا فى الهم واحد

حسان: فلنسر

نزال: اتركوا الحكام فى الكراسى

إنهم يخشون أضواء الشوارع

مسعود: يا جماعة قد شبعنا من حكايات المسارح

دربنا كالصبح واضح

(عرسان، فلسطينيات: ٢٢١-٢٢٣)

يؤكد عرسان على مسألة الوحدة و التضامن، و يعرب عن فرحته بوحدة العرب يوم انعقد لواء حرب تشرين و يعتبرها حلاً قومياً فرض نفسه فى تشرين، ليكون الحل الأخير فى سبيل التحرير فردّ النصر فيها إلى الوفاق الوطنى (بلبل، ٢٠٠٢: ٣٤٠).

سعيد: ما هو العمل و كيف؟ إننى مستعد قل لنا و نحن ننفذ

المختار: أجمعوا أهل القرية على هذا الرأي.

سعيد: أهل القرية لا يجتمعون على رأى...بينهم خصومات و دماء كثيرة و لكل مختار فيها طموحه و غاياته...فكيف يجتمعون؟

المختار: ليست مستحيلة، ليس لنا خيار الأمر فنحن لا نستطيع مواجهة الغرباء وحدنا من دون القرية(عرسان، ١٩٨٩، ج ٢، الغرباء: ٧٨٧، ٧٨٦).

ففى تشرين كان التضامن العربى مشرفاً و أثمر انتصاراً على المستويات جميعاً، فالوحدة أثبتت أن بإمكان العرب أن يصلوا إلى النصر و هم مجتمعون، فهذا الحل طرحته حرب تشرين و تبناه عرسان فى مسرحية الغرباء و قد أعادت الحرب الثقة بالأمة و بقدره أبناءها.

يوسف: أتبكي يا مختار؟

المختار: إنهم هم يا يوسف ... أهل القرية الذين أعرفهم. أهلى و أهلك، أهل القرية إنهم يأتون جميعاً. ألم أقل لك إنها شجرة طيبة و ما عليك إلا أن تهزها من جذورها لتعرف مقدار صلابتها و تماسكها، إنهم يأتون...يأتون.

المختار: أراهم أمام ناظرى فى الساحة...أهم الأحفاد أم الأجداد؟ إنهم شىء واحد هم يجتاحون السهول و سلاحهم يتعانق فى الساحة و «الله أكبر» على ألسنتهم جميعاً(عرسان، ١٩٨٩، ج ٢، الغرباء: ٨٠٢).

أما الوفاق العربى الذى فرح به الكاتب يوم حرب تشرين لم يلبث أن تحطم، و انفرط بأسرع مما كان يظن و بشكل أسوأ مما كان يتوقع فكتب عرسان عراضة الخصوم للحديث عن اختراق الصف العربى و عودته إلى الانقسام بعد التضامن الرائع فى تشرين. فمن أين تأتى الوحدة بين الحكام العرب فى حروب طاحنة بين بعضهم بعضاً، عقب التضامن المشرف فى تشرين فاستطاعت الصهيونية زرع الشقاق بين العرب و تفكيك كلمتهم، فعملت على إخراج أكبر الدول العربية من ساحة المواجهة باتفاقية سيناء و ابتدأت حرب جديدة بين الحكام العرب و شنوا حرباً لا هوادة فيها على بعضهم، منشغلين بهذا العدو الذى راح يقوي و يقوي من خلال تفرقهم و انقسامهم(غنيم، ١٩٩٦: ٢١١، ٢٠٩، ١٥٧) فيخاطب ابوعلی حساناً وظافراً بلهجة تحريضية فيها رنة صوت الحكواتى و السكين فى الحلق.

ابوعلى: هيا أيا حسان
يا فارس الفرسان
هذا الوغى يا أشجع الشجعان
فى ساحة المقهى غدا الميدان
حرب الأشقاء استوت
تقدموا تقدموا فوارس العربان
قلوبنا يا إخوتى أقسى من الصوان
لكن على الشفيق و الرفيق و الصديق
هيا إذن فوارس العربان
شنوا حروب العار نحو بعضكم
و جنبوا شرورها العدوان
ما عاش من عاش جباناً ...
أسرعوا السيوف للطعان

(عرسان، ١٩٨٩، ج٢، عراضة الخصوم: ٣٩٤)

فتركيز عرسان على التفرق و عدم الاجتماع، لم يكن إلا الإشارة على الداء القومى
فمعالجته لا يكون إلا بالتضامن و الوحدة.

هـ. كرامة الوطن و الدفاع عنها

يعالج عرسان قضية أخرى من القضايا القومية و هى مسألة الدفاع عن الوطن وكرامته،
و دور الشعب فى الحفاظ عليه فالدفاع عنه يتم بأبنائه أولاً و لابد لهم من التكاتف و رصّ
الصفوف، فلا يستطيع أفراد أن يقفوا دون الآخرين سداً فى وجه الغزاة. إنه وطن الجميع و
على الجميع أن يحموه و يتكاتفوا فى سبيل درء الخطر عنه.

المختار: بدأت تفهمنى ... هذا ما ضيع القرية، و بدّد قوتها، و إن القرية موجودة وقوتها
موجودة و لكن كيف نستثيرها كقوة جماعية، كقوة قرية تدفع عن بيوتها الخطر مرة
واحدة، لا كقوة أفراد منها، يدفعون الخطر كل عن بيته و نفسه(عرسان، ١٩٨٩، ج٢،
الغرباء: ٧٦٩).

يصور عرسان في هذا المجال صورة المواطن الذي يبحث عن كرامته في وطنه ليدافع عنه. فأبو على في عراضة الخصوم نموذج من الشخصية الإيجابية التي لبّت نداء الوطن (أم سليم) بالرغم من أنها عانت من الوطن؛ فانضمام أبي على إلى أم سليم ووقوفه بجانبها و هو الفقير المعوز ليس إلا لخدمة أهداف الوطن و الدفاع عنه من جهة و من جهة أخرى لكي يتخلص من إهانات الانتهازيين (ظافر و حسان) الذين لا يباليون بقضايا وطنهم (غصب، ٢٠٠٥: ٢٦٣، ٢٦٢).

يطرح عرسان في عراضة الخصوم قضية الكرامة من منظور طبقي، فالفقراء منهم أبو على هم الذين يهتمون بالوطن في السراء و الضراء و يدفعون ثمن هذا الاهتمام و هم لا يشبعون الخبز، و لا يملكون في الوطن شيئاً، و لكن الوطنية تتفجر من حناياهم، فعندما تطلب زوجة أبي على (سعدية) منه العودة إلى البيت و تأمين الخبز. يقول أبو على: علينا واجب وطني مثل غيرنا و لا... .

سعدية: واجب وطني... واجب وطني... ألا تكف عن ترديد هذا الكلام و هل أطعم أولادك الذين يبكون في البيت من هذا الواجب الوطني فيشبعون... (عرسان، عراضة الخصوم: ٣٩٩)؛ فيرفض أبو على دعوتها قائلاً: «روحي إلى البيت، لمت صغارك و اشتغلي و أطعميهم، و اشحذي و أطعميهم... و احكي لهم أن اباهم راح ليغسل العار عن لقماتهم بيده... فإذا عاد لهم وطن كريم و أب كريم... و إلا فوطن كريم خير من أب ذليل» (عرسان، عراضة الخصوم: ٤٠٢، ٤٠١).

إلى جانب شخصية أبي على تبقى صورة أم سليم أيضاً جميلة لأنها تبنت المهمة القومية و الوطنية الخطيرة للدفاع عن أرض الوطن، و ساهمت مساهمة فعالة إلى جانب الرجل في إيجاد الحلول المناسبة للتخلص من الذل و الحفاظ على كرامة الوطن و ذلك بمتابعة طريق الشهداء و رفع مشعل الفداء حتى النهاية.

هذه الموضوعات التي تطرقنا إليها كانت من أبرز الاهتمامات القومية و الوطنية عند عرسان في أعماله الثلاثة المختارة.

ملاحظات عن مسرح عرسان القومي

أهمية المكان

انتقاء المكان ذو أهمية بالغة فى تقديم المناخ أو البيئة اللازمة لتحديد المجال الحيوى للفكرة المسرحية؛ لأنه يحدد مسار الحكاية و أسلوب تلاقى الشخصيات (إخلاصى، ٢٠٠٣: ١٣٤)، تدور مسرحيات عرسان الثلاثة فى ساحات عامة فالمكان فى فلسطينيات ساحة فى القرية و فى الغرباء ساحة عامة فى إحدى القرى و فى عراضة الخصوم ساحة تقود إليها طرق ملتوية.

إن عرسان المنشغل بهموم الوطن و قضاياها، أراد إبراز شخصياته بانتمائه القومى و الوطنى لا بانتمائه الاجتماعى، فقد اختار الساحات العامة التى يلتقى فيها الناس دون تحديد لأى انتماء فهذه الساحات سمحت له بحشد عدد كبير من الشخصيات ذات النماذج المختلفة، فاهتمامه بها يدل على شدة عنايته فى عرض موضوعاته القومية لمشاركة الجميع فيها (بلبل، ٢٠٠٢: ٣٦٠).

الأسلوب الرمزي

ينحو عرسان - رغم واقعيته - منحى رمزياً فى مسرحه و لم يتخل عنه بل يطوّره. ففي الغرباء نجد أن لكل شخصية فى المسرحية ما يقابلها فى الواقع، فشخصية المختار توازى الحكام العرب و جماعة/ابى داود تقابل اليهود و الصهاينة و القرية تقابل الوطن العربى و الحارة التى احتلتها جماعة/ابى داود توازى فلسطين؛ ففقدوم الجماعة إلى القرية يساوى تسرب اليهود إلى فلسطين و محاولة هذه الجماعة التمكن من الأرض توازى عمل الصهاينة بالإضافة إلى سير أحداث المسرحية متوازياً مع أحداث الواقع بشكل إشارى واضح (غنيم، ١٩٩٦: ٢٦٨).

فى عراضة الخصوم الخصمان؛ ظافر و حسان يمثلان اتجاهين؛ اليمين و اليسار، و أمسليم تمثل الوطن و أسماء سلمان و سالم و مسلم تدل على الاتجاهات السياسية حين تتصارع و تتركب مطامع الشعب (بلبل، ٢٠٠٢: ٣٦٤)؛ أما رموز عرسان ساذجة و ليس صعباً على القارئ كشفها و قد يكون ذلك بسبب اهتمامه بالهموم الوطنية و القومية و أراد توضيحها و تقريبها إلى المواطن العادى.

حواره المسرحي

يؤمن عرسان بالفصحى لغة في حوار المسرحي فهو من الأوائل الذين قدموا الشعر المسرحي على المنصة في سوريا؛ ففلسطينياته مسرحية شعرية كاملة (حمود، ٢٠٠٢: ١٨٧)، حوار مكثف، موجز، و سريع إلى الأفهام و متناسب مع شخصياته المسرحية فالإيجاز و التناسب مع الشخصية صفتان من حوار و يساهم حوار أيضاً في خلق الإيحاء و المناخ المسرحيين لميله نحو الشاعرية و الواقعية (بلبل، ٢٠٠٢: ٣٧٠).

النتيجة

المسرحية تواكب المجتمع منذ نشأتها حتى اليوم و تعبر عن تطوره الفكري و طموحاته القومية و الوطنية، و الاتجاه القومي هو الاتجاه الذي يتخذ من القضايا القومية محوراً له و يعالج قضايا المجتمع و مشكلاته بمختلف الأبعاد. أسهمت المسرحية مع بقية الأنواع الأدبية في طرح الموضوعات القومية و معالجتها فشهد الأدب المسرحي اتجاهات عديدة من أبرزها الاتجاه القومي. عبر الأدباء عن طموحات الأمة و تطلعاتها العريضة فظهرت نماذج عديدة من المسرحيات القومية في الأقطار العربية للتعبير عن القضايا الوطنية.

على عقلة عرسان يعد بحق من طليعة الأدباء الذين اهتموا بالمسألة القومية فأفرد لها جزءاً من نتاجه. ركز عرسان على دور المسرح الملتزم بواقع الجماهير العربية و المعبر عن قضاياها فيشكل مسرحه تجربة متقدمة و ذات طابع ريادي في المسرح العربي الحديث في سوريا من حيث منطلقه القومي و مضامينه الطليعية. الجانب القومي في مسرح عرسان مرتبط بالقضية الفلسطينية، إذ تناول عرسان الموضوعات ذات الصلة الوثيقة بالمأساة كخروج الفلسطينيين و تشرده في الأقطار العربية و معاناته الصعبة كما صور وحشية اليهود و بطولات الشعب.

ظلت كرامة الوطن و الوحدة العربية من الموضوعات القومية الأساسية في مسرحه و انعكس أبرز اهتمامات عرسان القومية و الوطنية في أعماله الثلاثة المختارة و هي من أنضج النماذج في هذا الميدان.

المصادر و المراجع

- ابراش، إبراهيم. ١٩٨٧م. **البعد القومي للقضية الفلسطينية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ابوشاور، سعدى. ٢٠٠٣م. **تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ابوهيف، عبدالله. ٢٠٠٢م. **المسرح العربي المعاصر قضايا و رؤى وتجارب**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- إخلاصي، وليد. ٢٠٠٣م. **لوحة المسرح الناقصة**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- أطرش، محمود إبراهيم. ١٩٨٢م. **اتجاهات القصة في سوريا بعد الحرب العالمية الثانية**. دمشق: دار السؤال.
- بلبل، فرحان. ٢٠٠١م. **مراجعات في المسرح العربي**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- _____ . ١٩٩٧م. **المسرح السوري في مائة عام**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- _____ . ١٩٨٩م. **المسرح العربي في مواجهة الحياة**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- _____ . ٢٠٠٢م. **من التقليد إلى التجديد في الأدب المسرحي السوري**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- جندارى جمعة، ٢٠٠٤م. **النص المسرحي و نكسة حزيران**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- حمّود، فاطمة. ٢٠٠٢م. **المسرح في سوريا بين الريادة و التأصيل**. دمشق: مطبعة التعاونية.
- سلطى التل، سهير. ١٩٩٦م. **حركة القوميين العرب و انعطافاتهما الفكرية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- صمودى، مصطفى، ٢٠٠٠م. **قراءات مسرحية**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- عبدالغنى، مصطفى. ١٩٩٤م. **الاتجاه القومي في الرواية**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب.
- عصمت، رياض. ٢٠٠٢م. **بقعة ضوء (دراسات تطبيقية في المسرح العربي)**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- عقلة عرسان، على. ١٩٨٩م. **الأعمال الكاملة**، ج ١. دمشق: دار طلاس.
- _____ . ١٩٨٩م. **الأعمال الكاملة**، ج ٢. دمشق: دار طلاس.
- _____ . ١٩٩٦م. **وقفات مع المسرح العربي**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- غصب، مروان. ٢٠٠٥م. **دراسات في المسرح السوري**. حمص: منشورات جامعة البعث.
- غنيم، غستان. ١٩٩٦م. **المسرح السياسى في سوريا**. دمشق: منشورات دار علاء الدين.

الاتجاه القوي في مسرح على عقلة عرسان ٦٣٦٥

محمد حمو، حورية. ١٩٩٩م. تأصيل المسرح العربي بين التنظير و التطبيق في سوريا و مصر. منشورات اتحاد الكتاب العرب.

محمد، نديم. ١٩٨٢م. الأدب المسرحي في سوريا نشأته و تطوره. دمشق: مؤسسة الوحدة.